سيناريو للتلفزيون

الحرون

ترجمة أحمد جاسم العلي

بقلم الكاتبين البولنديين زانوسي وزابروفسكي

جرى شاب بسرعة وتصميم وسط شارع حال في حي يقع ضمن ضاحية تتميز بمفان رافية تحتضنهـــا حدائق كبيرة وتحرسها أسيجة حديدية . كـان الشاب في أوائل العشرين يلبس على الطريقة الحديثة بنطلونـا خيّط من قطع قماش قطني متين وسترة زرقاء مـن نفس النوعية ، ومن كتفه تتدلى مضطربة حقيبة كبيرة . لاح انه يهرب من احد ما . كان وجهه ملوثا ومن أنفـه يجري ما يشبه الدم ، وقد ربط يـــده اليمنى بمنديل ملطخ بالدم ايضا . وتقدم شيئا فشيئا مـــن بيت يشبه قلعة سكوتلندية صغيرة ــ من الممكن متابعة كل ذلك من خلال نباتات مورقة حيث توجد بريجات (١) ونوافـــذ باطارات حجرية ــ . كبح جماح سرعته وهو يتوجه الـى البوابة التي تحمل لافتة : ممنوع دخول الباعة المتجولين ! وقرع الجرس .

من انبوب للتخاطب سأل صوت : « ماذا هناك ؟ » .

« حادث . أريد أن أتلفن » .

« لا افهم . من هناك ؟ » . كان صوت امراة .

« لقد ضربت . أريد أن أتلفن » .

« يوجد مقهى عـــلى بعد ٥٠٠ متر من هنا فيـه تلفون . سر بخط مستقيم ثم اعطف يسارا » .

« اسمعي . القضية مستعجلة . أريد أن أبلغ عن اعتداء » .

لم يأت جواب من أنبوب التخاطب .

« لخاطر الله . أي نوع من الاحياء هذا ؟! انه البيت الثالث الذي أصرف منه ! أيها المسيح ! ربما تكونون أنتم بحاجة الى مساعدة يوما ما ! » .

مرت لحظة صمت قبل أن يتكلم الصوت :

« السيدة خارج البيت » .

قبض الشاب على رأسه علامة اليأس . وجفل فجأة متألما :

« لخاطر الله ، أريد التلفون ، لا سيدتك . لقـد هوجمت » .

من احدى النوافذ ظهر لثانية فقط شكـــل امراة خلف ستارة مسحوبة . ونطق الصوت :

« أدخل » .

صدر صوت أزيز وفتح باب يدور على محـور . تحرك الشاب بسرعة ، واندفع بقوة خلال الباب الامامي. فوجد نفسه في ردهة كبيرة وفارغة . خلف زجاج باب

نبأ محاولة الاعتداء الاثيم على الوزير ، كانت صحيفـة كل الناس أغزرها مادة في تغطية الحادث . فقد كلف رئيس التحرير ثلاثة من نوابـــغ محرريه بالتحري عن المدعو سالم زكي عبد الرحمن ، والتنقيب في حياته . كل شيء عن ماضيه . حاضره . صلاته . أصدقائه . نقائصه . رذائله . جيرانه . أقاربه . غزواته . نزواته. مغامراته . آرائه . صفحة كاملة أرادها منهم عن الاسرار المحيطة بالموضوع . خفايا دوره . هل ثمـة قوة وراءه تحركه ؟ هل هناك الاعيب ودسائس ومؤامرات خفية ؟ لاي حساب يعمل ؟ وكم قبض ؟ واين وضعت الخطة ؟ ومن هم الشركاء ؟

وكانت هناك صورة للمشهد الفريد على خمسـة أعمدة . دفع فيهـــا رئيس التحرير عشرين جنيهـــا لمصورها ، وكتب تحتها بنفسه : ساعة الحادث الاليم . الحارس الشخصي للوزيـر يدفع عنـه اعتداء المجرم الاثيـم .

وكان الخبر موضوع اليوم ، على السنة الناس في كل مكان . أما سالم زكي عبد الرحمن فلم يقرأ عنـــه شيئا . فقد كان هذا آخر عهده بالصحف ، والوزراء ، والدواوين ، ونهاية سجله الطويل في دنيا العاملين ، وبداية عهده بعالم الهذيان والمجانين .

القاهرة

مبرغل (٢) ظهرت صورة ظلية لامرأة . وفي ركن ، فوق طاولة صغيرة ، وضع تلفون .

قالت المرأة المحتجبة في الجانب الآخر من الباب :
« أرجوك لا تعط هذا العنوان، ستغضب السيدة» .
« ما اسم هذا الشارع » ؟
« شارع الغابة الخضراء . ولكن لا تعط العنوان » .
« حسنا » .

أدار الشاب قرص التلفون وانتظر لحظة والسماعة عند اذنه .

سأل الصوت : « مشغول » ؟
« نعم » .
« لمن تتلفن » ؟
« صديقي ، اريده أن يأتي ويأخذني من هنا » .
« لم لا تستدعي شرطيا » ؟
« سأحاول مرة أخرى . سأنتهي في دقيقة » .
« ولكن ليس من هنا . أخبرتك عن وجود مقهى قريب » .

« أرى انك قد عقدت العزم على أن تراقبي رجلا يضرب حتى الموت من على درجة بابك ... بامكانك ان تستدعي الشرطة ، ولكني لن أتزحزح من هنا قبل أن يأتي أحد ما ليخرجني . كنت اعتقد قبل قليل انك انسانة قبل كل شيء ... » .

لم يأت جواب من الجانب الآخر . نظر الشاب بعصبية الى الشكل المحتجب ثم قال بلين :
« أنا آسف » .

سأل الصوت من الجانب الآخر : « كيف وقع الحادث » ؟

« لا أدري ... حدث كل شيء فجأة . كانوا ثلاثة. باغتوني . أردت صدهم ـ وأشار الى يده المربوطة ـ ولكنهم القوني ارضا . غير اني تدبرت امري للنهوض وهربت بجلدي » .
« ماذا أرادوا » ؟
« أن يفتشوني . ولكنهم أخفقوا . ستظنين ان شرطيا يمكن أن يتواجد في ضاحية راقية مثل هذه » .

قال الصوت في الجانب الآخر : « ان المنطقة هادئة جدا . انا لا أرى أيا من المارة عندما اتطلع من النافذة » .
« آه ، لا بد انك تلتقين بأحد ما عندما تخرجين الى السوق . على كل حال ، ان الناس يعيشون هنا » .

صدرت ضحكة خافتة من الجانب الآخر : « أنا لا اخرج الى السوق . كل شيء يؤتى به الى هنا . ولكنك تريد أن تتلفن » .
« نعم ، فعلا ... أنا آسف . لا زلت أعاني بعض الشيء من اثر الضربة » .

وادار قرص التلفون ، ماسكا السماعة قرب اذنه للحظة ، ثم أعادها الى مكانها .
« لا يزال مشغولا » ؟
« نعم » .
« الا يوجد لديك أكثر من صديق واحد » ؟
« ليس في هذه البلدة ، لا » .
« لم لا تستدعي شرطيا اذن ؟ سيكون اسرع في الحضور » .

سحب الشاب نفسا عميقا مثل غطاس يستعد لغطسة أخرى :

« اسمعي ، لا حاجة بك لان ترتعبي . انا لا انوي سرقة او اتلاف اي شيء في هذا البيت الجميل . لن تحصل لك اية متاعب البتة . فلن اكون هنا لاكثر من ربع ساعة » .

فتحت الباب جزئيا . في فتحته وقفت امرأة ترتدي مبذلا ، طويلة ، نحيلة وجميلة لا تزال ، مستخفة بعمرها الذي تجاوز الخمسين .

قالت بصوت دافىء وخفيض : « اود تصديق كلامك » .

قال الشاب بنبرة المضطهد « أنا لا استطيع أن افهم ما الذي يجعلك ترتابين بي » .

« أوه . لا شيء على وجه التحديد ... فقط لاننا لم نستقبل زوارا هنا منذ أمد طويل » .

« في هذه الحالة ينبغي أن تكوني مسرورة » . قال الشاب ورفع السماعة ، أدار قرص التلفون ، وبعد فترة قصيرة عدل عن المخابرة التلفونية واظهر اضطراره للتخلي عنها .

« أنا واثق انك لن تعاقبي ... » .
« من قبل من » ؟
« السيدة » .
« أتهمك السيدة ؟ »
« عدنا » . وتنهد : « لا » .
« حتى لو كانت أنا » ؟
خفض الشاب عينيه . « بصراحة توقعت أن تكوني » .
« لم تظهر ذلك » .
« حسنا ، لانك اردت ان تبقي مستترة ... » .
« لماذا تبدو مرتبكا ، اتشعر بالذنب » ؟
« نعم ، بسبب تطفلي عليك وتعكيري لصفوك » .
« اتسخر » ؟
« لا . أنا اعني ما أقول . وقد فعلت أكثر من ذلك، افسدت عليك عزلتك » .
« كيف تعرف من أكون » ؟
« قرات ذلك على البوابة . وتعرفت على الصوت في التلفزيون » .
« ماذا شاهدت في التلفزيون » ؟
« مقابلة معك » .
« متى » ؟
« قبل ثلاث سنوات . عندما كان زوجك لا يزال حيا » .

« وانت تتذكر صوتي؟.. انت تعرف الشيءالكثير عنـي » .

« الجميع يعرفـون لو يقرأون الصحف . وقـد شاهدت أفلامك » .

فجأة حولت الحديث : « كيف حال يدك » ؟

« تؤلمني قليلا . لا عليك » .

« ماذا كنت تفعل في هذا الجوار » ؟

« ألتقط صورا . أنا مهتم بتاريخ الفن » .

قالت : « هذا ليس مكانا للاهتمام التاريخي » .

كانت لا تزال تقف عند المدخل ، شكل مبهم في الضوء المنتم الآتي من نوافذ غرفة الاستقبال خلفها .

نشط الشاب : « هو المقصود . لقـد هدم نابليون الكنائس القوطية في باريس لانه أعتقد انها كانت معلمـا من معالم الهمجية . الفن الحديث يفـدو الآن عتيقا . انظري الى مقتنياتك المنزلية الحديثة ، انهـا مختلفة تماما » .

« ألهذا السبب كنت تلتقط صورا » ؟

« نعم » .

« لماذا اخترت يوما غائما بدلا من آخر حيثالشمس مشرقـة » ؟

« الجو » . ابتسم الشاب . « الجـو ضروري . التصوير الفني أكثر من حقل نشاط بالنسبة لي » .

« والمبنى أكبر اهمية من شاغليه » .

« الاغنياء يحتفظون بأنفسهم لانفسهم » .

« ما الذي يجعلك تعتقد بهـذا ؟ الانهم لا يدعونك تلج بيوتهم » ؟

« أنت فعلت . ولكنك أستثناء » .

« أتظن هذا ؟ اني أدافع عن عزلتي بيقظـة تفـوق يقظة الآخرين » .

« أعرف ، ولكني لم أعن هذا ... » .

نظرت المرأة اليه نظرة تحد :

« أنت تورط نفسك في متاعب ... » .

« ربما ... بيد ان كل ما حدث كان مفاجئا ... لم اتصور ابدا اني سأحظى بفرصة التحدث اليك » .

« حسنا ، الآن وقد حظيت بها ... كيف ستعمل على استغلالها » ؟

نظر الشاب وقد روّع فجأة وخفض عينيه :

« أنا لا أتعقبك . أشعر بأني أتجاوز حدود كرمك ولطفك » .

ورفع يده الى جبهته ثم قال فجأة :

« هل لك أن تريني الطريق الى الحمام ؟ أريد أن اغسل وجهي » .

« أنت على حق . فانت لا تبدو بحالة حسنة .. كان يجب أن أنتبه الى هذا بنفسي ... ستقـول ان الاغنياء ليسوا فقط متحفظين ، ولكنهـم ايضا عديمو الاحساس . غير انك اردت ان تتلفن ... أتريد أن تتلفن الآن ، أم بعد ان تغتسل ؟ » .

« اذا استطعت أن ابقـى هنا مدة اطـول بعض الشيء » .

ضحكت المرأة وفتحت الباب :

« في هذه الحالة أدخل » .

التقط الشاب حقيبته ودخل قاعة الاستقبال . بدا المكان هنا أكثر اضاءة من الردهة . كانت غرفة مسرفة في الاناقة والترف ، تشبه مجموعة فنية : كان هناك عـدد من التماثيل لفنانين قدماء تكشفت عن وجوه اختلاف مع لوحات تعود الى فترات أقدم بكثير .

« لماذا أخذت هـذه معك ؟ » اشارت المرأة الى الحقيبة .

قال الشاب : « بحكم العادة . انا آسف » .

وضع الحقيبة بجانب كرسي ووقف مترددا يحدق في الصور .

« آه ، نعم ، أنت مصور ، اليس كذلك ؟ » .

« ليس تماما . أنا مؤرخ فن .. أو بالاحرى ، في سنتي الاخيرة » .

« طيب ، اجلس وارني يدك . اظن انها بحاجة الى أشعة . اتؤذيك ؟ » .

أخذت المرأة يده في يدها بلطف ، وتجاوب هو معها بسعادة ، مستسلما لها بعاطفة أمومية .

« هنا ، اتؤلمك ؟ » .

« قليلا ، كما لو اني اتلقى ضربة . الديك المـام بالطب ؟ » .

« لا . الآن اثن مرفقك . ثابر . أيؤلمك هذا ؟ » .

« قليلا » .

« والآن ؟ » .

أمسك الشاب نفسه : « نعم » .

« في أية جامعة انت ؟ » .

« هانوفر » .

« اسمع » ، قالت المرأة فجأة . « يجب أن تذهب الى المستشفى حالا ، ربما يكون هناك كسر . انهـا آخذة بالتورم ... الآن ، كما أحسب » .

اعترض الشاب بشكـل غريزي : « لا ، لو كان كسرا لشعرت بألم ممضّ . لقد كسرت ذراعي مرة » .

« وأنت تتزحلق ، بدون شك » . قالت المرأة وهي تتفرس بشكل ساخر في الشاب الذي خفض عينيه .

« لا ، في العمل . صدقيني لا يوجد شيء . لقد خفّ الالم » .

« ربما كانوا يريدون عدتك » . سألت المرأة عـلى نحو مفاجيء . « كمصور محترف لا بد أن تكون عـدتك غاليـة » .

« لست مصورا » . قال الشاب مستغربا . « انـا طالب ومجالي هو تاريخ الفن ، اخبرتك بهذا » .

« حقا . يا لشرودي . ماذا ارادوا اذن ؟ » .

« مالا » .

« كان عليك أن تعطيهم بكل بساطة . لقد بدأ الوضع يسوء هنا كما في أميركا . عندما كنت في نيويورك كنت أحمل دائما جزدانين ، احدهما في حقيبتي للتعمية . ولم يكن يحوي اكثر من دولارين . أقصد انك لو وقعت في دين فمن الممكن أن تقتل ، في وضح النهار . الى هذا الحد بلغ بهم اليأس . وهكذا فالشرطة تقبض عليهم . لا توجد عندهم عقوبة الموت ، هل توجد ؟ » .

« انهم يتحدثون عن اعادتها » . قال الشاب هذا ليبقي الحديث مستمرا .

« وهل انت مع او ضد اعادة عقوبة الموت ؟ » .

« ضدها » .

« افرض ان اولئك الاشخاص الذين هاجموك قبل قليل قتلوك فعلا ؟ ماذا سيكون شعورك اذا عرفت انهم مقابل قتلك سيعيشون في تنعم ، انهم سيتلقون احكاما يخفف منها حسن الادارة في السجن ، وانهم سيخرجون وعندهم مدخرات في البنك » .

« أعتقد اني سأصبح في خبر كان وقتذاك » .

« هذا صحيح » . ضحكت المراة . « ولكن تصور أن يحدث هذا لقريب لك ؟ ما الذي ستفكر فيه وانت تضع الازهار على قبره ؟ » .

« لا ادري ، لم افكر بهذا ابدا » .

« بالضبط ، وعليك أن تعمل التفكير فيه » .

« وماذا عنك ؟ هل تقفين الى جانب عقوبة الموت » ؟

« لا ، أنا ضدها . دعنا من هذا ، هل سلبوك شيئا ؟ » .

قال الشاب : « نعم ، سلبوني محفظتي . لم يكن فيها شيء كثير » .

« أخذوا اوراقك أيضا ؟ » .

« نعم ، كانت في المحفظة » .

« اذن لو اني طلبت اثبات هويتك ، فلا فائدة » .

ألقت المراة عليه نظرة فاحصة . جفل الشاب ونهض واقفا :

« بالطبع ، اغفري لي . كنت فظا . كان يجب ان أقدم نفسي . جوزيف بيرجر » .

ضحكت المراة ، ونظرت اليه باستحسان :

« الآن تم التعارف بيننا . هل كنت تتوقع هذا عندما دخلت الى هنا ؟ » .

« ابدا ، حتى في أفضل احلامي » .

« حقا ؟ ولكن ربما كانت أحلامك أكثر قربا الى الارض » .

رفع الشاب حاجبه استحياء ، وتوردت المراة شيئا وفي الحال ضحكت .

« هل انت رجل عملي ؟ » .

« لا ادري . بشكل معقول . بالقدر الذي يتيح لي الاحتفاظ برأسي خارج الماء » .

« يلوح انك من النوع الذي يهدف الى اكثر من هذا . لذلك دهشت لاختبارك الفرع الذي اخترت . لا يبدو لي انك طالب ناشيء ... ماذا بعي اذن ؟ لست حسنة الاطلاع في هذه الامور . ولكنك قد تكون مدرسا او موظفا من موظفي الصيانة ... ستتيح لك فرص ملائمة وكثيرة في التصوير الفوتوغرافي . هل حلمت في الوصول الى القمة ؟ » .

« من المؤسف ان حياتي رتيبة جدا . ان عليّ ان اكسب عيشي . فانا لم اولد في حي جميل مثل هذا » .

« وتكسب عيشك من التصوير الفني ... حدثني عن طفولتك » .

« الافضل لا » .

« لماذا ؟ كانت قاسية ؟ » .

« لم تكن قصة ممتعة في كل فصولها . ينبغي أن تدركي هذا ، نظرا الى انك كنت يوما ... فقيرة . على اية حال هذا ما تقوله سيرتك الشخصية » .

« وتلك هي الحقيقة . ولكني الآن غنية واسكن في .... كيف عبرت عنه ؟.. في حي جميل » .

« أحياء جميلة يسكنها اناس رائعون » .

« أوه ، لقد استدرجتك الى ملاحظة تافهة . ولكن بالمناسبة ، هل علمت ان احدى الفتيات في قضية (مانسون) اظهرت في شهادتها انها كرهت الناس الرائعين ، وانه يجب قتلهم جميعا ؟ ليس من السار أن يكون الانسان حذرا ونزّاعا الى الشك ، ولكن مجتمعا يوجد فيه أغنياء وفقراء يجبرنا على أن نكون كذلك . أقول هذا بسبب شعوري بالذنب لاني لم اكن مضيافة . ولكن هذه المسألة كانت ، ببساطة ، موقوفة على شرط ، هل قرأت (ماركس) ؟ » .

« لا تقولي لي انك تقفين في صف الثورة » .

« بالطبع أقف في صفها ، شريطة أن تشمل الجميع . كم سيكون رائعا ! الجميع فقراء ، والجميع قد تحرروا من سلطان الثروة ... تستطيع ، وانت فقير ، أن تكون انسانا صالحا ... يا للسماء ! وجهك ! لقد نسيت انه بحاجة للغسل » .

نهض الشاب مصمما :

« اذا لم تمانعي ، أفضل ... » .

« لن أسمع منك ... ان الامر يستدعي خبرة امراة ... وعلى كل حال فالحمام غير مرتب ... وارى ان أهيىء لك تركيبة ثلج . يبدو ان عينك تنتفخ » .

« لا أظن هذا . من المحتمل انها وسخة فقط » .

« سنرى . سأعود اليك بعد لحظة » .

خرجت المراة . وقف الشاب مترددا لفترة من الوقت ، يسترق السمع ، ربما ، الى ما كانت تفعله .

ثم خطا عبر الغرفة الى الجدار المقابل للنوافذ وراح يتفحص بعضا من رسوم « كاناليتو » . ولبث وقتا أمام احداها .

« هل اعجبتك ؟ » كانت المرأة قد عادت .

فوق الطاولة وضعت صينية فضية وقد رتبت فيها ضمادات تنذر ببعض الخطر وتشبه الى حد ما العدة في مستوصف صحي .

« ممتازة » . قال الشاب دون أن يبتعد عن اللوحة . « الاصلية في متحف (درسدن) ، هذه نسخة » .

« أنت على خطأ . هذه هي الاصلية ، والمستنسخة في متحف (لينينغراد) » .

« وأنا أقول درسدن » .

« أؤكد لك انها في متحف لينينغراد . لقد زرت انا وزوجي لينينغراد وأرانا القيّم اياها خصيصا » .

« يجب أن تكون هناك نسختان اذن . أو ربما حدث هذا قبل أن تسترجع مجموعات درسدن بعد الحرب » . كان الشاب واقفا لا يزال عند الصورة .

قالت المرأة : « أود التحقق من هذا الموضوع » . وذهبت نحو خزانة كتب ، انزلت البوما ووضعته فوق الطاولة . نظرت الى الشاب وهي تبحث في الالبوم ، ولكنه لم يتحرك .

« ألا تستطيع أن تنتزع نفسك منها ؟ » .

« انها ممتازة » .

قلبت المرأة صفحات الالبوم .

« ها نحن ... ثبت في النهاية ان كلينا على حق. توجد نسختان . تعال هنا » .

خطا الشاب متباطئا عبر الطاولة .

« أترى ؟ حتى النسخ التي تحاكي الاصل فيها اختلافات صغيرة ... من الواضح ان شيئا ما دخل على أساليب التجديد ، فالروس يستعملون طلاء موحيا ... ولكن هذا ، بالطبع ، لن يضيف شيئا الى حسن اطلاعك على هذه المسائل . والآن ، أجلس لاعالج وجهك » .

« صدقيني ، الافضل ... » .

« أخائف أنت ؟ » .

« قليلا » . قالها بصراحة .

« أعدك اني سأكون بمنتهى الرقة ... تعال الآن » .

تنهد الشاب وجلس . جلست المرأة الى جانبه . وهي تزيح جانبا الحقيبة التي تحتوي على آلات التصوير:

« انها ثقيلة جدا ، ماذا وضعت بها ؟ » .

« الجهاز المعتاد ، ستة في ستة ، ٣٥ ملم ، طقم عدسات » .

أخذت المرأة حشوة من قطن مخضلة وشرعت تمسح وجه الشاب وهي تقول :

« أنا أجهل أوليات عمل الكاميرا . عندما كنت لا أزال أعمل أفلاما لم أستطع تحمل آلات التصوير . كنت أشعر كما لو ان عينا باردة ، غير انسانية . تتركز عليّ . هذا هو السبب ، ربما ، في عدم حبي للناس الذين يضعون نظارات » .

نظر الشاب الى صورة زوجها المرسومة . كان يضع نظارات . وابتسم .

« طبعا ، توجد استثناءات » قالت المرأة . « يا الهي ... تبدو كما لو انها كدمة ، ولكنه بعض الوحل، بالاضافة الى انها ملوثة جدا. أيؤذيك هذا ؟ » .

« لا ، بسيطة ... كان زوجك جامع لوحات عظيما » .

« هذه احدى الصيغ للتعبير عما كان في الحقيقة » . وابتسمت المرأة ساخرة . « لقد كان في الواقع جامع مال عظيما . وأنا صرفت هذا المال في مجال الفن » .

« لماذا ؟ » .

« انت تسلك الآن كصحفي يجري مقابلة » .

« أنا آسف » .

واصلت المرأة معالجة وجهه .

« أنت تعلم ، اني أمقت المقابلات ، والسبب هو تحدثي كثيرا عن نفسي ، وعلى نحو غير حكيم ... ان اي انسان سيعتقد ان قاطعي الطريق أولئك قد فركوا وجهك بالقار ... ولكني لا أحتمل أن توجه اليّ أسئلة » .

« أعتذر مرة أخرى . لقد نسيت لفترة انك تنظرين الى الاشياء بوجهة نظر مختلفة ... » .

« هل ستبهرني بحكمة ثمينة أخرى عن الاحياء الجميلة ؟ » .

« لا ، اني أحاول أن أعتذر عن زلاتي » .

« أيهن » ؟

« أكثيرات هنّ » ؟

« ماذا تتوقع » ؟

« لا أدري . كنت مهتاجا . اذا كنت قد تجاوزت الحدود ... » .

« لست بحاجة لاستعمال صيغة الزمن الماضي » .

« لا أفهم » .

« لا ؟.. الآن ، أنت تبدو أحسن بكثير » . قالت المرأة ثم وضعت جانبا القطن الذي كان جافا جدا . « كان وحلا شنيعا » .

التزمت الصمت ، محدقة الى الشاب بهيئة المستجوب . ولفترة من الوقت ظل الشاب خلالها صامتا أيضا ، كان يبدو مضطربا بشكل واضح .

« اني في انتظار أن تساعديني على اكتشاف خطأي ، ان كنت قد أخطأت » .

« تنتظر ... أنت تنتظر الرجال الذين هاجموك

ليذهبوا » . قالت المرأة ببرود . « يخيل لي انهم قد ذهبوا للتو » .

خفض الشاب عينيه وتنهد : « هل لي أن أتلفن الى الشرطة ؟ » .

« سأفعل هذا عنك . ان ادارة القرص قد تصعب عليك » .

خرجا الى الردهة ، ووقفت المرأة عند الباب بينما توجه الشاب الى التلفون . وعندما كان يتهيأ لرفع السماعة قالت المرأة فجأة وبشكل حاد :

« هذه المسرحية الساخرة بدأت تكون مملة . ليكن واضحا لديك اني كممثلة سابقة أعرف أدوات المكياج عندما أراه . تستطيع أن تغادر بمفردك . وأحذرك ، ان البيت مزود بأجهزة انذار ضد اللصوص مرتبطة بمركز الشرطة . وأنا لا أعلم ما هي لعبتك ، ولكني انصحك أن تخرج مثلما دخلت » .

استدارت وعادت الى قاعة الاستقبال وأغلقت الباب . صدم الشاب . بعد لحظة فتحت الباب بقوة .

« هل تريدني أن أتلفن للشرطة » ؟

« أريد حقيبتي » .

« أية حقيبة » ؟

« حقيبة عدتي » .

« هيا ، أسرع » .

ذهب الشاب الى قاعة الاستقبال ، وبشكل متأن ، التقط الحقيبة ، وفتحها ، ثم شرع يتدبر أمر آلات التصوير .

« هذه هي عدتك ؟ » قالت المرأة ساخرة .

« نعم » . أجاب الشاب بخضوع .

« ماذا يدور في ذهنك ؟ قصة مصورة ؟ » .

« لا » .

« لاي صحيفة ؟ أم انت كاتب تعمل لحسابك ؟ » .

« لا أعمل لصحيفة ما » .

« لماذا تكذب ؟ أخائف انت من ان استدعيهم ليرموك ؟ » .

« لا . أنا طالب ، كما اخبرتك قبل قليل . تلك هي الحقيقة » .

« في (هانوفر) » .

« نعم » .

وضع الشاب الحقيبة على الارض يائسا .

« عليّ أن أكتب أطروحة ماجستير ، وهذه كانت فرصتي الكبيرة . أنا لا أستطيع القيام بسياحة لكل صالات العرض . ان موضوعي هو (كانالیتو) والفترة التي عاشها في (درسدن) ، وقد رفض زوجك أن يسمح بعمل صور مستنسخة ... » .

« ذلك كان زوجي ... لماذا لم تتقدم اليّ ؟ » .

« خفت أن ترفضي ، وعند ذاك سأنتهي الى طريق مسدود » .

« أردت أن تلتقط صورا للوحة ؟ » .

« نعم » .

« ماذا حسبت ؟ انني سأدعك تدخل بصفتك ضحيه هجوم وحينذاك ستعمل على استنساخ لوحة كانالیتو ؟ لقد اعتمدت الضرب على أوتار قلبي » .

كشر الشاب بحياء :

« حسنا . وقد فعلت في آخر الامر . لا بد انك قد خدعت لبعض الوقت » .

« يبدو أنك قد خدعت أنت نفسك . فأنت لا تزال تقبض على يدك كما لو انها تؤلمك حقا » .

« مجرد ايحاء ذاتي » .

ضحكت المرأة :

« أفدني الآن . هل جريت أم عملت ما جعلك مقطوع النفس لاهثا ؟ » .

« جريت » .

« وانتظرت حتى غادرت (ماریاني) الى مركز البريد وبقيت لوحدي ... مخطط صغير وذكي » .

« ألا يؤهلني هذا لنيل جائزة ؟ » .

تنفست المرأة بعمق وهزت رأسها بشكل يعبر عن الشك :

« أنت تدهلني ! أنت لا تصدق ! » .

« أنت تطرينني ... انا لم أحرز اي وسام من قبل » .

« ماذا أفعل بك ؟ لا بد أن تكون قد غادرت قبل وقت طويل » .

« ولكني ما دمت هنا ... » .

« ينبغي أن أدعك تلتقط صورك ؟ » .

« لن يستغرق هذا سوى لحظة . ان لديّ أداة ومضية ملحقة ، رغم ان ضوء النهار يكفي ربما . سأنتهي من مهمتي في خمس دقائق » .

« وماذا بعد هذا ؟ » .

« لن تنشر ابدا . سوى في أطروحتي . التي لن تطبع ، هل تطبع ؟ » .

« اذا كانت جيدة ، من يدري ؟ » . قالت المرأة وهي تشعر بالقلق بسبب هذا الاحتمال . وتراءى للشاب ان النجاح قد امسى في متناول اليد فقال بانفعال شديد :

« أتريدين أن أقسم انها لن تطبع ؟ » .

« بظهر انها لن تطبع حقا ... على أية حال ، اذا كنت ستكتب عن كانالیتو ، يتوجب عليك أن تعرف المزيد عن النسخ » .

« ولكني لا أزال مترددا بين قبولك ورفضك ... سأكتبها فقط اذا سمحت لي باستنساخ الصورة ... ان هذا سيستغرق وقتا أقل بكثير من هذه المحادثة » .

رمته المرأة بنظرة فاحصة : « أتحسب انها مسألة وقت ؟ » .

تلعثم الشاب . طأطأ رأسه وقال برقة :
« لا ، انها مسألة ثقة » .
« أثق بك ؟ لقد عملت . وتعمل . كل شيء لجعلي أظن فيك الظنون والسيئات » .
« لقد عملت كل شيء لجعلك تفكريـــن بي طوال الوقت . كانت مهمة صعبة . هل أبدأ ؟ » .
أخرج الشاب من الحقيبة آلة تصوير ذات صورة منعكسة ونظر الى المرأة ملتمسا .
« لا » .
« عليّ أن أغادر » ؟
« نعم » .
« ألا توجد أية فرصة لاقناعك » ؟
« فرصة ؟ توجد دائمـــا فرص . ولكنك أضعت فرصتك في حينها » .
« ألا يمكن منحي اخرى » ؟
تثاءبت المرأة ، حاجبة فمها بتحفظ .
« أصغ الآن . ان لعبة (البينغ بونغ) هذه تفقد اثارتها » .
التقط الشاب حقيبته قانطا واتجه نحو الباب . تلكأ عنده .
« أرجوكِ » قال يائسا . « هل لي على الاقل أن القي نظرة على تلك الصورة ؟ أنا أعلم انها مستنسخة » .
استغربت المرأة . « ولكنها هناك أمامك ؟ » .
« ليست تلك التي أعنـي . أنا معجب بـ (منظر في الغروب) ، وهي ليست في هذه الغرفة » .
ومضت في وجه المرأة نظرة دهش . ثم ابتسمت ابتسامة ماكرة :
« افرض انها ليست هنا . افرض اني بعتها ؟ » .
صعق الشاب . وقف وفي عينيه نظرة من أصيب بخراب تام :
« هذا ... هذا غير ممكن ... لقد سمعت عنها . قولي انها ليست الحقيقة » .
نظرت اليه بشكل مبهم .
« أتوسل اليك ؟ مستحيل » .
« لا » . قالت بهدوء . « ليست عندي » .
كانت المرأة تراقب تعبير الهزيمة على وجه الشاب لوقت قصير . ثم سألت :
« أفدني مرة أخرى قبـــل أن تغادر ، لاجل من فعلت كل هذا ؟ حب الفن ؟ » .
« ألا تؤمنين بقدرة الناس على حب الفن ؟ » .
« نعم ، أؤمن ، ولكن ليس في مثل حالتك » .
نكس الشاب رأسه ، هازا اياه حزنا . ولكنـه سرعان ما نظر اليها مباشرة وسأل بلين :
« ألا تؤمنين حتى بالكبرياء ؟ » .
شخرت المرأة مزدرية :
« لا تحدثني عن الكبرياء . لو كنت تملك ذرة منها لكنت اعتذرت وغادرت قبل وقت طويل » .
ابتسم الشاب بكآبة :
« أحب هذا ، يصدر منك . ان الكبرياء الحقيقية تمكنك ... تمكنك أن تتحملي كل شيء » .
نظرت المرأة اليه بنفاذ واهتمام مفاجيء :
« كيف تعرف » ؟
« أعرف . لم أكن قد ولدت فـي حي جميل . وينبغي أن تعرفي أنت أيضا » .
« اصغ الي ، أيها الشاب . لقد كان عندي طموح حقيقي ... وقد خرجت الى الوجـــود لانازع العالم حقي ... وهذا ما فعلته تماما . ولكن دخولي كان على مرأى من الجميع ، من الباب الامامي ، في حين أنت .. أنت تجري خلف صورة عادية لرســـام متوسط ... وأنت تتسلل كلص من الباب الخلفي » .
ردد الشاب بهدوء وهو يلتقط حقيبته : « ربما ، ربما أنت على حق . رغم اعتقادي انك في موقف مضى كنت ستبدين تعاطفا تجاهي وكنت راغبة في ذلك جدا. الآن فقط لا تتذكرين » .
كانت المرأة تصغي اليه باهتمام واضح ، رغم انها تصرفت وكأن أفكارها في مكان آخر » .
« حسنا جدا ، التقط صورك » .
« نكتة أخرى ؟ » .
« بالطبع . أنت لا تعتقد ان بالامكان التعامل معك بجدية » .
« وبالتالي فان الصورة ليست عندك ؟ » .
« بلْ عندي » .
« ولكني أطلب الاذن لالتقاط الصور ؟ » .
« ستفعلْ . اتبعني . انها في قاعة الاستقبـال الاخرى » .
تقدمت الشاب الى باب آخـر ، فتحتـه وراحت تنتقل من مكان الى آخر مشيرة . ووقف الشاب غير بعيد وتعبير شك وعدم تصديق ينطبق في عينيه .
« تفضلْ » .
تناول حقيبته وخطا نحـو الباب ، متباطئا أول الامر ، غير انه حثّ خطاه وأسرع في الدخول الى قاعة الاستقبال . في الغرفة علقت بعض اللوحات الزيتية ، أكثرها يعود الى المدرسة الفينسية ، بينما شغلت أعمال كاناليتو جدارا ضيقا . تلفت حوله ، وعندما عثر على الصورة المقصودة سار اليها ، ثم رجع الـى الطاولة ، وعيناه لا زالتا على اللوحة . وبدأ يخرج عدته ، وعندما انتصب مرة أخرى كان ماخوذا لا يزال ، ماسكـا آلـة التصـوير .
« هكذا اذن » .
« نعم » . قالت المرأة وهي تنظر اليه بفضول .
« هلْ هي أكثر أم أقلّ مما توقعت ؟ » .
« انها أصغر مما توقعت » . قال وعيناه لم تبرحا

النظر الى الصورة . « انك عندما تفكرين وتعيدين التفكير بشيء تبدو الحقيقة دائما غير حقيقية بعض الشيء . كما لو اني لا أستطيع التصديق انها هنا فعلا » .

حول نظره بعيدا عن اللوحة وألقى نظرة عجلى على المرأة :

« كما لو اني لا أصدق انني هنا فعلا » .

سألته المرأة : « لم لا ؟ » .

شرع يركب عدته ، ينصب حاملا ثلاثي القوائم ويضع آلتين للتصوير فوق الطاولة . التقط احداهما ودار حول الطاولة وكأنه يبحث عن الزاوية الافضل . ووقفت المرأة في الجانب المقابل .

« لم تكن الصورة فقط هي ما فكرت به دائما . فكرت بك ايضا . وقد بدا هذا قبل ذلك بكثير . في المدرسة اعتدت أن اقتطع صورك من الصحف . عرفتك من السينما ، والمجلات ، والتلفزيون . كنت شخصا هبط من عالم آخر . على ظهر يخت . في أوبرا باريس . مع الرئيس . واني لاذكر تحقيقا تلفزيونيا عنك حول رحلة قنص قمت بها . وهل تعلمين انني كطالب اعتدت أن أسافر بالاسعار المخفضة وفي جيبي ماركات قليلة فقط لالقي عليك نظرة خاطفة من بعيد ؟ » .

ضغط على زر التوقيت الزمني في آلة التصوير الموضوعة فوق الطاولة . لم تنتبه المرأة .

« اتحاول اخباري انك كنت متعلقا بي ، أم ان ذلك كله يعود الى كاناليتو ؟ » .

« أتسخرين من مشاعري بسؤالك ؟ » .

« لن أمتلك الجسارة لفعل هذا . على أية حال ، لقد انجزت عملا شاقا . ولكن ليس بما فيه الكفاية تماما . كان عليك أن تلاحظ ان اسمي لم يكن موجودا على البوابة . اذن فمن اين بالضبط حصلت على عنواني ؟ ليس من دار البلدية ، لانه مدون ومعروف فقط لدى قلة من الاصدقاء المقربين » .

خطا الشاب نحو الحامل وانشغل بآلة التصوير ذات الصورة المنعكسة . فكها عن الحامل ، ووضعها فوق الطاولة ، وتناول آلة تصوير أخرى من حقيبته ، أدار قرصا فيها ، ونقر مصراعها مرتين كما لو انه يختبرها ، ثم عاد الى الحامل .

« انني مصغية » . قالت المرأة .

« انا آسف » . قال الشاب وعيناه مصوبتان على المعينة (٣) . « يجب أن تعدي بعدم اتخاذ أي اجراء . كانت مجرد صدفة ، صدقيني » .

« (ماريان) ؟ خادمتي ؟ » .

« نعم ، انها ابنة أناس يعرفهم والدا صديقي لي » .

« يا لك من مستقتل حقيقي ... ولكني اعتقدت اني قد نلت منك ... انفجر شيء في تلك الكاميرا . التوقيت ؟ أخشى أن اكون قد دخلت في الصورة » .

« لا يهم ... هل لي ان اسالك شيئا ؟ » .

« الافضل لا في حالة ارتكابك خطأ مضحكا آخر ، دعني أسألك انا سؤالا بدلا من هذا . هل ان ذهاب ماريان الى دائرة البريد كان عملا مدبرا ايضا ؟ » .

« لا ، كنت اراقب بيتك لعدة أيام » .

« كم ، على وجه التحديد ؟ » .

« أربعة » .

« الغريب اني لم الاحظك » .

« أنت غالبا لا تنظرين من النافذة » .

« بالعكس » . قالت المرأة بنبرة حزينة في صوتها . « اني أصرف ساعات عندها . فأنا أحب مراقبة الغيوم . هل حدث أن صورت الغيوم ؟ غير اني أستخدم عادة النوافذ التي تطل على جانب الحديقة . أنا لا أستطيع مواجهة المصورين . انهم يحاولون دائما الحصول على صور مني وعليّ أن أختبىء منهم » .

رفع الشاب رأسه من فوق آلة التصوير :

« لماذا » ؟

« حاول واسعف سؤالك بنفسك » .

« حاولت ولم أستطع حتى الآن . لماذا تعيشين في عزلة ؟ لماذا تفصلين نفسك عن العالم ؟ لماذا لا تدعين أحدا يقترب منك ؟ » .

لم تجب . وأحنى الشاب رأسه .

« أنا آسف . ليس لي الحق في هذا ... كان سؤالا غير لبق . أنا انسان متهور جدا » .

ابتسمت المرأة بكآبة :

« تلك حقيقة . ولكنك شاب » .

« أنت أيضا ! » هتف الشاب باقتناع . « لم أحسب وأنا أراك على البعد انك جميلة حقا وشابة حقا . يجب أن يخبرك أحد بهذا ، وليكن انا حتى لو أدى هذا لطردي ... » .

ضحكت : « لقد حاولت لتوي » .

« يا الهي ، مزيدا من السخرية » .

« أنت تبالغ . انني متأثرة بكلامك . ولكنه غير صحيح . لقد بلغت السن التي لم أعد فيها قادرة على الحقيقة المعذبة . ان ثمن الطموح هو المعرفة . معرفة الدناءة ، معرفة الانانية ، ومعرفة النفاق . كل الاشياء التي استطعت مرة أن أنحني لها اكراما لـ ... هنا ، اكراما لاي شيء ؟ لقد اعتدت ان أكون قاسية ، وحتى متحجرة القلب أحيانا ، بيد ان ما كان متناقضا في المظاهر هو امتلاكي لاحتياطي غير محدود من الوفاء في قلوب الناس . وهذا صحيح بشكل مضحك . وانا الآن اقف على حافة المرارة باستمرار ، واعتقد انك ستغفر لي اذا لاح لك اني أصور حالي بطريقة مسرحية . وتفهم » .

قالت هذا بنبرة رقيقة جدا ورفعت نظرها اليه .

« أفهم » . قال الشاب وهو يجاري نغمة صوتها .

« ولكن هل تفهم حقا ؟ أنت مختلف . جيل مختلف ، عصر مختلف . أنت انسان عملي ، لا أوهام ، لا طموحات » .

« أنت مخطئة » .

« أتحاول أن تثبت انك انسان رومانتيكي ؟ » .

« لا ، لست كذلك » .

« اذن حب الفن مجرد ادعاء ؟ » .

أجاب : « لا . الفن هو الادعاء. أما الحب فلا » .

صمت كما لو انه خشي ان يقول الكثير . ونظرت المرأة اليه بشكل مركز .

« ما هو الحب ؟ » . سألت برقة بالغة وفيما يشبه الهمس .

« لقد أدركت هذا في الساعة الحاسمة » . قال ذاك بلا تفكير . « لقد صممت على اذلالي . طالب تعيس من الاحياء الفقيرة يقع في غرام أرملة ملكة مقتنيات منزلية ، متغطرسة وهاوية فن ! أمر مضحك ، أليس كذلك ؟ » .

« فعلا » . وضحكت . « لم يصفني أحد على هذا النحو ... أرملة من النبلاء ملكة لمقتنيات منزلية . على فكرة ، ان زوجي قد شيد أيضا مصنعا للتبريد » .

« أيهم هذا ؟ » .

« لا » .

نظر في عينيها .

انقلب تعبير المرأة الى سيماء جادة . تنهدت وامرّت يدها فوق رأسه ممسدة اياه برفق . وأخذ هو يدها وطبع عليها قبلة . ندّ صوت طقطقة من جهاز التوقيت في آلة التصوير .

« أفسدت الفيلم ... » .

ردد : « أي الافلام ؟ » .

« ماذا تشرب ؟ ويسكي ؟ جن ؟ » .

« أي منهما سيفعل فعله » .

وضعت يدها فوق كتفه وقادته من خلال باب ضيق في جدار مبطن بالحرير الى داخل مخدع .

وابتسمت مثل فتاة شابة .

« اني أحتفظ بالمشروبات بجانب سريري . ليس لاني أشرب كثيرا ، ولكن في أيام حزينة مثل هذا اليوم والغيوم قد انتشرت في السماء ، يكون وجود جرعة في متناول اليد شيئا طيبا » .

« الجو يصحو والغيوم ستنجلي » . قال الشاب مشيرا . فجأة انحنى عليها وقبّل شفتيها . وعندما نظر اليها مرة أخرى غمزت بعينها جذلة ، وحلت ، بحركة عرضية ، متعمدة ، عقدة الستارة فسقطت على طول النافذة ببطء . استدارت واجتازت المخدع ، ومن باب الحمام بعثت اليه بابتسامة . ثم اغلقته خلفها.

وسمع صوت رشاش الماء وأعلى منه صوتها وهي تترنم. كان اللحن (أين ذهبت الازهار كلها ..) . خلع سترته وفك أزرار قميصه ، ثم جلس على حافة السرير وشرع يحلّ رباط حذائه . دخلت الخادمة غرفة المخدع .

كانت شابة ، فتاة جميلة جدا ترتدي مئزرا ابيض وتحمل صينية عليها كأس واحدة .

قالت ببطء ووقار : « أخبرتني المدام أن أحضر لك كأس ويسكي سيفعلُ فعله » .

توقف الترنم في الحمام . وتناهى صوت انفتاح باب آخر ، في مؤخرة البيت . ذهبت الخادمة الى زر كهربائي ، وأشعلت النور ــ ثم انفجرت ضاحكة . وراح الشاب يتدبر أمر قميصه على عجلٍ .

في قاعة الاستقبال كانت آلات التصوير مطروحة، وقد نزعت الافلام منها . ذهب وجمعها بسرعة ، ملقيا اياها داخل الحقيبة ، واستدار ذاهبا باتجاه الباب المفتوح الذي يقود الى خلف البيت وكأنه أراد أن يقول شيئا أو يصرخ ...

قالت الخادمة : « طلبت مني المدام أن أسألك عن الصحيفة التي دفعت لك لصنع هذه القصة » .

« اغربي عني » .

« أخلاق » . قالت باحتقار . « ولعبة كاناليتو المزيفة » .

خرج دون أن يتفوه بكلمة أخرى . وعندما وصلَ الى البوابة صدر صوت وانفتح الباب تلقائيا . دفعه بقوة مهتاجا . في الشارع نظر خلفه . كانت المرأة تقف عند النافذة . وبسرعة سحب آلة التصوير ، عباها ونظر ، وهو يستعد ، الى فوق بشكلٍ يعبر عن شكّ : كانت المرأة لا تزال تقف هناك . رفع آلة التصوير . وفي تلك اللحظة سترت المرأة وجهها .

في اليوم التالي ، وفي الصفحة الخامسة من جريدة محلية ، ظهرت ، بحجم صغير ، تلكَ الصورة مع تعليق يقول : أبدا حرون (*) .

اشارات :

(١) البريجات ، جمع بريج : برج صغير تزييني يقوم عند زاوية مبنى .

(٢) الزجاج المبرغل : زجاج ذو سطح خشن حاجب للرؤية الواضحة .

(٣) العينة : عدسة اضافية في آلة التصوير تمكن المرء من معرفة ما ستشتمل عليه الصورة .

(*) ترجمت القصة عن مجلة :

Polish Perspectives. May 1976 No. 5 , pages 43 - 57